

المبحث الثاني

تاريخ العلاج بالموسيقى

● الجذور التاريخية للعلاج بالموسيقى :

الموسيقى أزلية .. تملأ أرجاء الطبيعة إيقاعاً وأنغاماً.. كما تملأ الكيان الانساني بالإيقاع المنظم .. أي أن الإنسان بكل أعضائه يعيش بإيقاع منتظم . فالنبض فى جسم ايقاع .. باختلاله يختل الجسم كله ، وبتوقفه تتوقف الحياة فيه .. كما أن القلب وضرباته ، والتنفس بشهيقه وزفيره ، والجفون فى طرفة العين ، والفم واللسان فى الكلام ، والمضغ فى الأكل ، والمعدة والأمعاء فى انقباضاتها المنتظمة لدفع الطعام خلالها منذ ابتلاعه حتى إخراجة من الجسم .. كله يسير بإيقاع خاص . كل ذلك وغيرها يسير حسب إيقاعات مختلفة ولكنها منتظمة ، متكاملة ، ومتجانسة .. اذا اختل شئ فيها اختل الجسم كله.

فما دام الإيقاع سليماً ، فالجسم كله يكون سليماً . أما حينما يضطرب الإيقاع ، فالجسم كله يصبح مريضاً ، لأنه اذا تألم عضو واحد فى جسم الإنسان يصبح الإنسان ككل إنساناً مريضاً.

من هنا جاءت فكرة تنظيم الايقاع الداخلي للإنسان عن طريق الموسيقى بإيقاعاتها المختلفة المعينة لكل حالة مرضية.

فلم يقتصر استخدام الإنسان للموسيقى على تهدئة الأعصاب وقضاء الأوقات السعيدة بسماعها ومساعدته فى أعماله اليومية عن طريق الغناء وفى العبادة .. بل استخدامها أيضاً فى الميادين العلاجية، إلى جانب القيم الإبداعية الجمالي - كما ذكرنا من قبل .

1 - العلاج بالموسيقى عند الإنسان البدائي:

لقد كان الغناء والرقص عند الإنسان البدائي جزءاً من طقوسه السحرية، يستخدمها لطرد الأرواح الشريرة (العفاريت - كما كان يسميها) باعتبارها تسبب الأمراض، حسب معتقداته القديمة.

من هنا اعتقد الإنسان الأول أن الموسيقى تشفي الأمراض بإبعاد الأرواح الشريرة وغفران الخطايا، وإدخال القوي الأخلاقية والأدبية في حياة البشر، وعمل التوازن المنشود بين الأمزجة الأربعة التي كان يظن أنها تحدد الطبع الانساني ، مما يعمل على إرضاء الآلهة.

ومن باب المعرفة ، فأسلوب "الأمزجة الأربعة" يرجع إلى العصور القديمة ، نسبة إلى طبيعة المشاعر والأحاسيس المكتسبة تجاه عامل خارجية ، من بينها الموسيقي ، واعتبروا هذه الأمزجة تشمل جوانب أربعة .

- المزاج المائي : ويوحى بالهدوء والبرود.
- المزاج الناري: وهو عكس المزاج المائي ويوحى بالعنف والثورة.
- المزاج الترابي: ويوحى بالثبات والتوازن.
- المزاج الهوائي : وهو عكس الماچ الأرضي أو الترابي ، ويوحى بالتشتت وعدم الاستقرار.

2- العلاج بالموسيقى عند قدماء المصريين:

استخدم قدماء المصريين الموسيقى في العلاج. ويقال أن كهنة معبد أبيدوس - وهو اكبر مراكز الطب في العصور المصرية القديمة - كانوا يعالجون الأمراض بالترتيل المنغم، باعتبار الموسيقى تقرب المرضى من الآلهة، وتحقق رضاهم، وبالتالي تشفي أمراضهم .. لذلك كانت فرق موسيقية خاصة تعزف في المستشفيات، وكان يرتادها المنشدون والراقصون، فكانت الأوتار والإيقاعات تدق بجوار المريض، وتختار له النغمات المناسبة

وفى التوراة ، ذكر أن داود النبي كان يخفف آلام شاول الملك وغضبه بالعزف على القيثارة.

والواقع أن العلاج بالموسيقى لم يقتصر على قدماء المصريين فحسب، وإنما امتد إلى الحضارات الشرقية القديمة، وعلى الأخص في الصين والهند.

فالصينيون والهنود أعطوها أهمية عظيمة وربطوها بالحياة الدينية والوطنية. فكان كونفوشيوس - الفيلسوف الصيني الكبير - لا يعشق الموسيقى فحسب، بل كان ينسب اليها أفضلًا اجتماعية .. ويعلن أن الموسيقى هي أداة فعالة هامة لتحقيق الانسجام في الحياة . كما أن اهل الهند يسمونها "مادرا سينتا" أي سحر الأغنية.

3-العلاج بالموسيقى في الحضارة اليونانية:

حكى فى الأساطير اليونانية أنه أمكن إيقاف نزيڤ أوديوس المجرور بواسطة الغناء ، لاحتواء الموسيقى على قدرات تستطيع شفاء أخطر الأمراض .. فكانت الوثنية مليئة بالعجائب التي كانوا يرجعون الفضل فيها إلى الموسيقى. وقد تطور الفكر الإغريقي، وانتقل إلى بداية مرحلة العمل، فى صورة أول محاولة لتقسيم الموسيقى حسب تأثيرها إلى المقامات التالية:

(أ) الفريجي (Frigian): ويجعل الإنسان شجاعاً جسوراً.

(ب) الليدي (Lidian): ويبعث على الحزن والشجن .

(ج) المكسوليدي (Maxolidian) : ويؤدي إلى حالة من الضيق.

(د) الدوري (Dorian): ويبعث احساساً بالارتقاء والاعتزاز بالنفس.

وفى الكتاب الرابع من "الجمهورية" The Republic صرح "أفلاطون" الفيلسوف اليوناني بأن الصحة فى العقل والجسم، ويمكن الوصول إلى الصحة عن طريق الموسيقى والجمباز، كما اشار إلى القوة العلاجية للأنية. كما قال أفلاطون: اللحن والترنيم يجدان طريقهما فى تواضع داخل النفس البشرية".

وأعلن فيثاغورس: إن الموسيقى يمكن أن تداوي جنون الناس ، وإنها تساهم مساهمة كبيرة فى الصحة إذا ما استخدمت بطريقة مناسبة.

وكذلك أشار "أرسطو" إلى المفعول المفيد والعلاجي للموسيقى.

وكان "امبيدوكليس" يهدئ المصابين بالصرع بواسطة اللعب على آلة "الزيتز".

و: كاسيدروس" ينسب للموسيقي القدرة على طرد أعظم الأحزان ، حيث يقول:
"إنها تطفئ المخاوف والثورة ، وتهدئ القسوة ، وتزيل الثقل ، وتمنح المنتبهين راحة
هادئة، وتبعد الكراهية، وتشفي الملل وثقل الروح " . ثم يأتي "جالينوس" فيصف
الموسيقي كترياق من سموم الأفعى والعقرب.

أما هيبوقراط " أبو قراط" - وهو من كبار الأطباء القدامى - فيقول : إن كل
مريض يحتاج إلى نوع من الموسيقي ، حسب حالته . فيجب أن يكون اختيار
الموسيقي موفقاً ، حتي لا تعطي آثاراً عكسية.

وقد امتد اثر هذه الأفكار إلى عصر متأخر في تلك الحضارة ، حتي أن
"أثيناوس النحوي"، الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد ، أكد لقائه أنه يمكن
التخلص من مرض "عرق النسا" بعزف المزامير في المقام الفريجي فوق الأجزاء
المصابة.

4- العلاج بالموسيقي في الحضارة الرومانية:

لقد قام الرومان بتعديل طفيف على المقامات الإغريقية ، وذلك بتغيير درجة
ركوزها، مما أعطي هذه المقامات تأثيرات أخرى مختلفة .. ثم استغلوا هذه المقامات
في التأثير على النفس، بعد معرفتهم بأنها تثير الانفعالات المختلفة لدي الإنسان.

5- العلاج بالموسيقي في الحضارة القبطية:

في اشهر المتاحف والمكتبات العالمية ، وأهمها المتحف البريطاني، ومكتبة
"جون ريلاندز" (John Rylands) والفاتيكان، ومتاحف برلين بألمانيا، ومتاحف
ميتشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية، توجد اوراق ردي كثيرة كتب عليها باللغة
القبطية منذ القرن الثالث، وهي فترة ازدهار القبطي. اغلب هذه الأوراق تحتوي على
إرشادات كثيرة في النواحي الطبية، شبيهة بما كان في العصر الفرعوني، وبعض هذه
الإرشادات تفيد بترتيل المزامير بهدف شفاء المرضى.

وفى هذا العصر كان رجال الدين يعالجون الأمراض النفسية والعضوية باستثناء مرض العيون .. فكان يقوم به رجل دين اكثر تخصصا.

على ورق البردي ، حكي أن القديس "أبو طربو" كان يعالج المرضى - خصوصاً المصابين بالصرع - بواسطة صلاة عرفت باسم "صلاة ابوطربو" .. وذلك عن طريق ترتيل المزامير بجانب قراءات من الكتاب المقدس. وقد أطلق الأقباط فى مصر على العلاج بواسطة ترتيل المزامير للمرضى داخل الكنيسة اسم "العلاج المقدس" .. كما استخدموا طريقة اخري للعلاج عن طريق موالد الأقباط السنوية واطلقوا عليه "العلاج الشعبي".

6- العلاج بالموسيقى فى الحضارة العربية :

وينتقل العلم من حضارة إلى حضارة ، تي يأتي عباقرة الطب العربي فى العصر الذهبي للحضارة العربية الاسلامية فيضيفون الكثير فى هذا الميدان .. فالعالم العربي الكبير "ابن سينا"- من كبار عباقرة الطب فى القرن الحادي عشر - درس اثر الموسيقى على الإنسان واستخدمها فى علاج المرضى .. وأهم هذا الاهتمام استخدام الذكر لتهدئة الحالات النفسية.

كما أن "ابو نصر الفارابي" كان يستخدم العزف على العود للتأثير على المستمعين بإضحاحهم وإبكائهم وفى إنمامتهم أو ايقاظهم.

7- العلاج بالموسيقى فى عصر النهضة:

فى بداية عصر النهضة أوصي " بيكون " "Bacon" باستعمال الموسيقى لتثييط الروح ، واقترح فى أحد كتبه استخدام الموسيقى فى علاج "الاضطرابات التكوينية".

واستعملت الموسيقى أيضاً كسلاح ضمن الأسلحة المستعملة فى مكافحة وباء الطاعون الذي اجتاح أوروبا فى ذلك الوقت .. فقد اوصت السلطات المسئولة وقتئذ بعزف الموسيقى للذين اصيبوا بالمرض.

وفى القرن السابع عشر كتب "هنري بيتشمان " Henry " "Beachman" أن الموسيقى تطيل العمر ، لأنها تقضى على الحزن والكآبة وانخفاض الروح المعنوية. والزوج الأمريكيون كانوا يؤمنون بأن للأغنية فاعلية فى شفاء المريض، ويطلبون منه الغذاء عدة ساعات يومياً.

وحتى القرن الثامن عشر ، كان ضحايا الأمراض العقلية يعتبرون مخلوقات خطيرة . فكان الهائجون يربطون بالسلاسل أو يجلدون إلى أن جاء الطبيب الفرنسي " فيليب بينيل " "Philippe Pinel" سنة 1793 ، لتبدأ على يديه صفحة جديدة . فلقد نزع الأغلال عن المرضى واستخدم أسلوب تنشيط الجسم والعقل ، كبديل انساني للأسلوب القديم ... وأطلق على ذلك اسم " العلاج المهني" ، وفى احد أشكاله استخدم الايقاع الحركي الموسيقي لعلاج النفس والروح .

وقد نصح "جون م. هادلي" "John. M. Hadly" بأن العلاج المهني اجراء ضروري، خصوصاً لمرضى الأعصاب، لإبقاء عقلهم وجسمهم، أو كليهما، باستمرار فى حالة نشاط.

وفى سنة 1871 ، كان الأطباء يستغلون العزف الهادئ على الكمان للتخفيف من حدة آلام الجرحى والمرضى "بعرق النساء".

فخلال القرن التاسع عشر اهتم الأطباء النفسانيون بالعلاج بالموسيقى ، وفى مقدمتهم (Moreau De Tours)، حتى بدأت الدراسات العلمية فى مدي التأثير الموسيقي على الإنسان، ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر.

8- العلاج بالموسيقى والحرب العالمية الثانية:

أثناء الحرب العالمية الثانية ، كانت الرغبة فى مساعدة المحاربين من نزلاء المستشفيات هي الدافع لتعيين موسيقيين بالمستشفيات وتشجيع مدرسي الموسيقى والفرق المدرسية ومديري الكورال لإدخال الموسيقى للمرضي كوسيلة للنشاط والتسلية. ثم انتقلت بعدها من مجرد اشباع للاحتياجات العادية للمريض إلى إشباع لاحتياجاته الصحية النفسية ، فضل العلاج بالموسيقى يستخدم كعلاج لتهئية المرضي لفائدة النفس والروح ، ولبقاء الحالة المعنوية سليمة. وبمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية، بدأ استخدام الموسيقى بطريقة أكثر تخصصاً، فظهر تعبير جديد "العلاج النفسي الجسماني" (Medecine Psychosomatique)، وحوله ظهر تعبير "العلاج بالفن" (Arttherapy) والعلاج الابتكاري، (Creativity) والعلاج بالموسيقى (Music Therapy)، " والعلاج بالسوفولوجيا " (Sophrology)، وأخيراً ظهر تعبير " العلاج البديل أو " الطب البديل".

ومن هذا العالم الجديد تبين انه من الضروري اعداد منهج للمعالجين الموسيقيين . فكان " هانز هوف" (Han Hof) رئيس قسم الأمراض النفسية العضوية فى مستشفى الجامعة بفيينا ، هو أول من وضع فكرة دراسة الموسيقى والطب سوياً. وبذلك نشأ أول تعاون بين الأطباء والموسيقيين والمدرسين وعلماء النفس ، وأنشأوا برنامجاً دراسياً للمشتغلين بالعلاج الموسيقي.

وفى سنة 1944 أنشأت جامعة ولاية " ميتشجان " أول منهج وضع خصيصاً لتدريب علاجيين موسيقيين ، وكانت أول دراسة اكايدمية تعليمية معملية انتظمت فى سنة 1946 فى جامعة "كانساس".

وفى سنة 1950 ، تأسس الاتحاد الوطني للعلاج بالموسيقى (N.A.M.T.) مما مكن من توحيد وتقنين تعاليمه وممارسته الإكلينيكية والبحث والتسجيل عن طريق الكليات المنظمة التي تكونت رسمياً لتخريج المتخصصين فى العلاج بالموسيقى ولسد احتياجات المستشفيات.

وفى سنة 1967 ، ظهر أول تنظيم علمي للعلاج بالموسيقى فى اليابان، وهو الاتحاد الياباني للعلاج بالموسيقى . وكان تركيزه الأساسي على علاج الأطفال المتخلفين عقلياً ، ثم ظهرت هناك بعد ذلك جمعية أخرى لخدمة هذه القضية عن طريق العلاج بالموسيقى . كما ظهرت فى هذا الوقت المطبوعات المختلفة : مثل المجالات والصحف والكتب والدراسات المتخصصة فى ميدان العلاج بالموسيقى وفى أوروبا أنشئت أول مدرسة للعلاج بالموسيقى سنة 1959 لتخريج معالجين بواسطة الموسيقى.

وانتشر هذا النوع من العلاج حتى اصبح فى امريكا 16 جامعة للعلاج بالموسيقى على أساس عملي ونظري ، كما اصبح هناك أيضاً 600 مستشفى تستخدم هذا النوع من العلاج. وفى "هارلم" بأمريكا بلغ عدد المالجين سنة 1966، 130 الف مريض.

أما على مستوي الولايات المتحدة الأمريكية ، فيوجد نحو 400 معهد يخرج المعالجين الموسيقيين ، لأن الإقبال على الاستفاده من العلاج بالموسيقى يتزايد ، حتى اصبح هناك الآن عجز فى عدد خبراء هذا التخصص. وباستخدام الموسيقى فى مستشفيات مدن أمريكا انتقل المرضى من مستشفيات الريف إلى مستشفيات المدن ، مما اضطر المسؤولين إلى تحويل دور الاستشفاء التي كان يحجز فيها المرضى إلى مراكز علاجية نشطة.

9- مراحل العلاج بالموسيقى خلال الربع قرن الأخير:

بعد أن توصل العلماء إلى أن المتابعة الإكلينيكية وحدها لا تكفي للوصول إلى معرفة ميكانيكية العلاج بالموسيقى ، فقد طالب المسئولون سنة 1971 بضرورة توضيح العمليات المعقدة ومعرفة فاعليتها باستخدام ابحاث سيكولوجية بمهج احصائي.

* وعلى ذلك فقد مر العلاج بالموسيقى فى هذه الفترة بثلاث مراحل :

1- فى المرحلة الأولى حدث تركيز كبير على الموسيقى دون الالتفات إلى دور المعالج.

2- فى المرحلة الثانية تركزت الأفكار على دور المعالج مع اهمال نسبي لدور الموسيقى ، وذلك من اجل تكوين علاقة متبادلة مع المريض.

3- وفى المرحلة الثالثة تحقق التوازن المنشود .. فاتخذ وضع متوسط بين هذين الوضعين المتطرفين ، فأصبح المعالج يستخدم تخصصه للتركيز على علاقته بالمريض ثم يتحرك فى الاتجاه المرغوب وبالسرعة المناسبة لإدماج كل من دور الطبيب ودور الموسيقى.

ورغم أن هذا العلاج ووجه بصعوبات وتحديات من الطبقات العلمية المختلفة، إلا أنه زاد فى بحوثه سيعاً وراء استخدام الموسيقى فى العلاج وبذل مجهود أشق لتقييم نتائجه.

ومن هنا لقي العلاج بالموسيقى اهتماماً عالمياً كبيراً، حيث وجد الإنسان دواء لبعض الأمراض بعيداً عن العقاقير والسموم الصناعية.

10- العلاج بالموسيقى حديثاً:

أعد الدكتور بيتر سلاي وآخرون من جامعة أكسفورد فى المملكة المتحدة دراسة تفيد أن الموسيقى يمن أن تخفف الاجهاد، تحسن الأداء الرياضى، وكذلك الحركة العصبية للمصابين بالأمراض العصبية. كما اظهرت دراسة جديدة بأن الإنصات للموسيقى ذات الايقاع البطئ أو التي تبعث على التأمل لها تأثير مريح على الناس، فتبطئ التنفس ومعدل نبضات القلب ، بينما يحصل تأثير معاكس على الأشخاص الذين يستمعون إلى الموسيقى ذات الايقاع السريع ، فيتسارع تنفسهم ويزداد معدل نبضات قلبهم ؛ وقام الباحثون فى الدراسة بمراقبة التنفس وضغط الدم ونبضات القلب وأي ادلة تنفسية أخرى لأربعة وعشرون شاباً وامرأة ، وبينما كانوا يستمعون إلى مقتطفات قصيرة من انواع مختلفة من الموسيقى من ضمنها الموسيقى الكلاسيكية

السريعة والبطيئة ، والايقاعات المعقدة ، وموسيقى الراب، كما راقبوا المتطوعين أيضاً أثناء فترات الاستراحة ، وتم تقسيم المتطوعين إلى مجموعتين ، الأولى تجريبية وهي التي تعرضت للبرنامج التدريبي فى الموسيقى ، والثانية ضابطة وهي التي لم تتعرض للتدريب الموسيقي ، وأظهرت نتائج الدراسة أن المجموعة الثانية اظهرت عدة مستويات من الإثارة، والتنفس السريع، وزيادة ضغط الدم، ومعدل نبضات القلب، وفقاً لسرعة الموسيقي، ومدى تعقيد اللحن، فى حين بدأ أن الأسلوب الموسيقي أو الاهتمام الفردي بنوع الموسيقي كان اقل اهمية من سرعة الموسيقي.

وقد لاحظ الباحثون بأن الايقاعات البطيئة تستحث الهدوء، ومما يثير الانتباه أن الوقفات القصيرة أو الاستراحات القصيرة بين المقطعات لمدة دقيقتين سببت شعوراً بالارتخاء اكثر من الفترة التي سبقت تحضير المتطوعين للإنصات إلى الموسيقي ، وكانت هذه التأثيرات اكثر وضوحاً عند الأشخاص الذين تلقوا تدريباً موسيقياً ، وذلك لأنهم تعلموا كيفية مزامنة تنفسهم مع المؤلفات الموسيقية . ويقول سلاي وزملاؤه أن الموسيقي لا تمنح الشعور بالمتعة فقط ، بل لها فوائد صحية نتيجة التناوب المنتظم للشعور بالارتخاء، والاختيار الملائم لنوع الموسيقي المتناوب بين الإيقاع السريع والبطئ، والذي تقطعه استراحات قصيرة ، يمن أن يستخدم لتحقيق الشعور بالارتخاء، كما يمكن أن يكون مفيداً بشكل خاص لمرضي القلب السكتة الدماغية.

